المحاضرة الثانية:
الأدب العربي في العصر الوسيط / المرحلة الثالثة:
عنوان المحاضرة: الموضوعات الشعرية التقليدية

تمهيد :

أصبح العراق بعد زوال دولة بني العباس صُقْعاً من أصقاع الدول المغولية التي حكمت آنذاك مساحات شاسعة من ديار الشرق . وكانت هذه الدول حربية جافية ، ولم لكن ينفق عندها ـ كما يقول ابن الطقطقا ـ سوى ((علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخرج ، لحفظ الأبدان والأمزجة ، والنجوم لإختيار الأوقات وما عدا ذلك من العلوم والآداب فكاسد عندهم)) .

ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا ،إذْ أقبل الناس على علوم اللغة العربية وآدابها درساً وحفظاً بعد أَنْ أسلم ((تكودار خان)) بن هولاكو ، و ((محمود غازان بن آرغون)) ،وعاد العلماء والأدباء الى التأليف في مختلف صنوف المعرفة. وظهر الشعراء في ساحة الأدب يتسابقون في نظم الشعر معبرين به عن أحاسيسهم وما تختلج به صدورهم ، و كانوا كثيرين، صنّف فيهم المؤرخ المشهور ابن الفوطي كتاباً سمَّاه ((الدرر الناصعة في شعر شعراء المئة السابعة)).

وتعاطى نظم الشعر كثير من رجال الدولة وموظفيها، مثل مظفر الدين بن الطراح (ت694هـ) ، ومن شعره الوجداني ما قاله وهو مسجون بدار النيابة ببغداد قبل أنْ يقتل بأيام :

القولُ فيما مَضى من عمرِنا هَذَرُ
فدعْهُ واصبرْ لما يأتي به القَدَرُ
واستشعر الصبْرَ إنْ نابتكَ نائبة
فالصبرُ أجملُ ما حُلِّي به البَشَرُ
لا ترعكَ من الأيامِ منقصة
فشيمة الدّهرِ في أبنائهِ الغِيَرُ

وإنْ أرَ الآن بعد النطقِ ذا حَصَرٍ فسوف يذهبُ عنّي العِيُّ والحصرُ
وإنْ تصبني سهامُ الخطبِ نافذة فلم تزلْ أسهمُ الأيام تعتذرُ
وكلُّ حادثةٍ في الدّهرِ هيّنة إذا غدا سالماً في طيها العمرُ

المديح:

هو أبرز الموضوعات الشعرية واوسعها، يعرض فيه الشعراء بكل قدراتهم الفنية مآثر الممدوحين، وافعالهم النبيلة ، ومواقفهم الحميدة ، وقد يذكرون فيه شجاعتهم ، وفروسيتهم ، وشدة بأسهم ، وقوة شكيمتهم ، إذا ما خاضوا حرباً ، أو صدّوا عدواناً .

وقد جاء المديح في ضربين ، الأول - وهو القليل - نابع من قرارة النفس ، يتصف بالصدق والإخلاص والودّ والنزاه والبعد عن الخضوع والخنوع. والثاني - وهو الكثير- صادر من طرف اللسان يتّسم بالكذب والمبالغة والتذلّل وإراقة ماء الوجه والسؤال.

ويغلب على قصائد المديح التقليد ، ولاسيّما في مقدماتها المستهلة بالغزل ، أو وصف الطيف ، أو وصف الخمرة ، أو الطبيعة ، أو الشيب وبكاء الشباب ، وقد تكون مستهلة بالحكمة ، والشكوى من قسوة الحياة ...

والملاحظ في المقدمات الغزلية التي يتخلص منها الشاعر إلى المديح برود العاطفة؛ لأنها مصطنعة لا تنمّ عن حب حقيقي صادق، وإنْ كان في بعضها شيء من اللطافة والرقة والعذوبة المتأتية من تمكّن الشاعر بلغته الشفافة من إتيان شعر مستحب يستوقف السامع ويستأثره ويشدُّه إليه مثل قول أبن أَبي أصيبعة (ت668ه) في مقدمة قصيدة يمدح بها الوزير العالم الطبيب أمين الدولة أبا الحسن بن غزال بن أبي سعيد : (للحفظ)

فـؤادي فـي محبتهم أسيرُ وأنّى سـارَ ركبهم أسـيـرُ
يحنُّ إلـى العُذيب وساكنيـه حنينـاً قـد تضمّنه سعيـرُ
ويهوى نسمة هبت سُحيراً بها من طيب نشرهمُ عبيرُ

وإنّـــي قانـــعٌ بعد التداني　　بطيفٍ مـــن خيالِهم يـزورُ

ومعسول اللَّمَى مــــرّ التجني　　يجورُ على المُحبِّ ولا يجيرُ

تصدَّى للصــــدود ففي فؤادي　　بــوافر هجـره أبــداً هجيرُ

وقد وصلت جفوني فيه سُهدي　　فمـــا هذي القطعية والنفورُ

كأَنَّ قــوامَهُ غصْــنٌ رطيــبٌ　　وطلعــةُ وجهــهِ بــدرٌ منيــرٌ

وبعد أبيات أخرى في وصف المحبوب الأهيف الذي دأب على الهجر والصدود، يتخلّص الشاعر إلى المديح بعبارات مليئة بالثناء والإطراء:　(للحفظ)

وإنْ أَشْكُ الزمان فإنَّ ذُخْري　　أمين الدولة المـولى الوزيـرُ

كـــــريمٌ أَرْيحـيّ ذو أيـــاد　　تعمُّ كما همى الجَـوْن المطيرُ

تَسامَى في سماءِ المجدِ حتى　　تأثّر تحـــت اخمصـه الأثيـرُ

لــهُ أمـــرٌ وعــدلٌ مستمـرٌ　　بـهِ فـي الخَلْقِ تعتـدلُ الأمورُ

وقد صلحت به الدنيا ودانتْ　　لصالحهـا المدائــن والثغـورُ

إنَّ هذا الشعر - وإنْ لم يبغِ ناظمها كسباً - لم يتخلص من المبالغة في إضفاء صفة العظمة على ممدوحه، وقد تصعد هذه المبالغة إلى درجة توحي أنّها غير صادقة وتفتقر إلى الجدّة والحياة والحركة، ومثال على ذلك قصيدة صفي الدين الحلي (750هـ) في مدح ملك مصر محمد بن قلاوون التي عارض فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يقول في مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا　　اللابسات من الحرير جلاببا

وقصيدة صفي الدين الحلي التي أوّلها :

اسبلن مـــن فوق النهود ذوائبا　　فجعلن حبات القلوبِ ذوائبـــا

وجلون من صبح الوجوه أشعةً　　غادرن فودَ الليلِ منها شائبـــا

وبعد أربعة عشر بيتاً من الغزل المصنوع ينتقل الشاعر إلى الممدوح ويظهره في صورة فريدة، وكأنّها خيالية؛ لكثرة ما فيها من نعوت بعيدة عن الواقع، منها قوله:　(للحفظ)

تُرجى مواهبهُ ويُرهب بطشـهُ		مثل الزمـان مسالمـاً ومحاربـــا
فإذا سطا ملأ القلـــوب مهابةً		وإذا سخا مــلأ العيون مـواهبــا
كالليث يحمي غابـــه بزئيـره		طورا، ويُنشب في القنيص مخالبا
كالسيف يبدي للنواظر منظرا		طلقاً، ويُمضي في الهياج مضاربا
كالسيل يحمد منه عذباً واصلا		ويعـده قــوم عذابــــاً واصبــا
كالبحر يهدي للنفوس نفائساً		منه ويبدي للعيـــون عجائبــــــا
فإذا نظـرت ندى يديـه ورأيـه		لـم تُلفِ الاّ صـــائباً أو صـائبـــــا

(الصائب: المطر، والصائب الثانية: السديد، المصيب).

ويندر أنْ نجد شاعراً ـ وهو يخاطب ملكاً ـ تخلّص من نعوت التبجيل والتعظيم والتفخيم، وكأنّ العطاء مرهون بمقدار ما يكيل من هذه النعوت ومنوط بها.

لقد كانت المبالغة والإفراط في النعوت سمة عامة عند الشعراء آنذاك... وكان الشعراء يشيدون بأريحية الممدوح، وكثرة سخائه، ووفرة عطائه، ويشيرون ـ تلميحاً أو تصريحاً ـ إلى حاجتهم إلى شيء من نواله. وقد يبلغ السؤال عند بعضهم إلى حدِّ الاستجداء المفضوح الرخيص، والتذلل المقيت، مثل قول الشاعر محمد بن محمد بن أحمد المنصوري (ت 878هـ) في البيتين الآتيين: (للحفظ)

**أُريد منكَ الآنَ يا سيدي		ثوبـاً مليحـاً ناصعاً فـي البيـــاض**
**فعبدك الآنَ غدا عاريـاً		من كلِّ شيء فاقضِ ما أنت قاض**

وحظي العلماء الفضلاء بنصيب كبير من المديح ؛ لأنهم سادة الورى ونجوم الهدى كما يقول الشيخ نجم الدين الغزي (ت 1061هـ) صاحب كتاب الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: (للحفظ)

**إنّمـا سادةُ الـــورى النجبــاءُ		ونجومُ الهدى هم العلماءُ**
**ينقضي الـدّهر والمكارم منهـم		أبدَ الدهر ما لهنَّ انقضاءُ**
**كيف تعفو آثارهــم وهي تبدي		للأُناسي فضلهــا الأنبـاءُ**
**فهــم الدائمونَ معنى وإنْ مــا		تُوا فواللهِ إنّهــم أحيـــاءُ**
**كُنْ عليماً إنْ شئتَ أو كُنْ مُحباً		إنّما الحبُّ لــو فهمتَ ولاءُ**

وقد تتناول قصائد المديح سير العلماء ومكانتهم في التصنيف ورجاحتهم في التدريس، مثل قصيدة شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن صالح (ت 861هـ) في مدح الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب المؤلفات المفيدة، يقول فيها: (للحفظ)

إمـــامٌ لأشتات البلاغـــةِ جامـــعٌ يُقاس بقسٍّ حين يَرقَى ويخطبُ

فقيه إذا رامَ الكتابـة طالـــــــب يفيضُ إليه مـن عطاياه مطلبُ

وقـــد حفظ اللهُ الحديثَ بحفظـــهِ فـلا ضائع إلاّ شذى منه طيبُ

ومازالَ يُمْلي الطِّرسَ من بحرِ صدره لآلئ إذْ يُملـي علينـــا ونكتبُ

(الطِّرس: بالكسر: الصحيفة. والجمعُ: أَطْرَاسُ).